تاريخ الاستلام:2025/05/26 .تاريخ القبول: 2025/09/25.

# معالم الاستراتيجية العسكرية في مقاومة الأمير عبد القادر 1832-1847

# Characteristics of the military strategy in the resistance to Emir Abd-el-Kader 1832-1847

أحمد بوذراع/ المركز الوطني للدراسات والبحث في التاريخ العسكري الجزائري

(الجزائر)

meriamou35@gmail.com

**الملخّص :**

تهدف هذه الدّراسة إلى إلقاء الضّوء عن الاستراتيجية العسكرية لمقاومة الأمير عبد القادر، ومدى نجاح هذه الاستراتيجية في مواجهة والصّمود في وجه القوّات الفرنسية الضّخمة، الّتي كانت وزارة الحربية الفرنسية ترسلها تباعا إلى الجزائر حتّى بلغت أكثر من مائة ألف عسكري.

تحاول الدّراسة الكشف عن جوانب من الفكر الاستراتيجي والعبقرية العسكرية الّتي أظهرها الأمير عبد القادر خلال سنوات المقاومة الّتي دامت خمس عشرة سنة، برهن فيها عن قدرة كبيرة في تنظيم الجيش، ومهارة في قيادة الرّجال، وحسن التّخطيط للمعارك، والعبقرية في الابتكار، والحنكة في اتخاذ القرارات.

**الكلمات المفتاحية:** الاستراتيجية العسكرية، مقاومة الأمير عبد القادر، العبقرية العسكرية .

**Summary :**

This study aims to shed light on the military strategy of the resistance formulated by Emir Abd-el-Kader and the extent of his success in confronting and resisting the massive French forces that the French Ministry of War successively sent to Algeria, reaching over 100,000 soldiers.

The study attempts to uncover aspects of the strategic thinking and military genius demonstrated by Emir Abd-el-Kader during the fifteen years of resistance, during which he demonstrated great capacity in organizing his army, skill in leading men, sound battle planning, a genius for innovation, and sound decision-making.

**Keywords:** military strategy, resistance of Emir Abd-el-Kader, military genius.

المؤلف المرسل: .....

**قال الله عزّوجلّ: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الّذينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} الآية 190 من سورة البقرة.**

**مقدّمة:**

منذ أن وطئت أقدام الغزاة الفرنسيين أرض الجزائر الطّاهرة صبيحة يوم 14 جوان 1830، اصطدموا بمقاومات شرسة، وثورات مسلّحة شملت مع مرور السّنين كلّ تراب القطر الجزائري، شارك فيها أفراد الشّعب الجزائري بمختلف فئاته، وأطيافه، وكانت من أطولها، وأشدها تأثيرا وإيلاما، وإثخانا في صفوفهم هي مقاومة الأمير عبد القادر بن محيي الدّين الّتي دامت أكثر من خمس عشرة سنة.

اعتمد الأمير عبد القادر في مقاومته ضدّ القوّات العسكرية الفرنسية، وعملائهم من القبائل المرتدة على استراتيجية عسكرية متعددة الأبعاد، متنوعة الأساليب، تتماشى مع أحداث كلّ مرحلة الّتي عرفتها سنوات المقاومة، في محاولة منه لمواجهة التّفوق العسكري الفرنسي الكبير في العدّة والعتاد، وقد أثبتت الأحداث نجاح هذه الاستراتيجية في العديد من المواقف، والمعارك، بل أنّها أجبرت قادة العدوّ إلى طلب توقيف القتال وعقد المعاهدات، ممّا سمح للأمير بتنظيم جيشه، وتعزيز مصالح دولته الفتية.

بناء على ما تقدم سنحاول الإجابة عن الإشكالية التّالية: ما هي معالم الاستراتيجية العسكرية لمقاومة الأمير عبد القادر؟ وما هي الإنجازات الّتي تحقّقت خلال تطبيق هذه الاستراتيجية العسكرية؟

**أوّلا: تعريف الاستراتيجية العسكرية** (Military Strategy)

قبل أن نبدأ في استعراض معالم الاستراتيجية العسكرية لمقاومة الأمير عبد القادر يجدر بنا عرض تعريف موجز للاستراتيجية العسكرية، هذا المصطلح الّذي تطوّر استعماله عبر مختلف عصور التّاريخ العسكري، وحسب التّطورات الّتي عرفتها الجيوش، وكذلك حسب اختلاف المدارس العسكرية الّتي كانت تستلهم نظرياتها وأفكارها من توجهات المنظّرين والقادة الاستراتيجيين.

يُعرّف الجنرال فون كلاوزفيتز ( Von Klauswitch) الاستراتيجية العسكرية بأنّها: « **فنّ استخدام الاشتباك من أجل تحقيق هدف الحرب**[1]»، بينما يعرّفها الاستراتيجي النّقيب ليدل هارت (Liddell Hart) بأنّها : « **فنّ توزيع واستخدام مختلف الوسائل العسكرية لتحقيق هدف السّياسة**[2] ».

من الواضح أن القاسم المشترك بين التّعريفات المختلفة للاستراتيجية العسكرية، هو أنّها تبحث في كيفية تخطيط، وإدارة الصّراع المسلّح من أجل تحقيق أهداف سياسة للدّولة.

**ثانيا : الأهداف الاستراتيجية لمقاومة الأمير عبد القادر**

بعد مبايعة الأمير عبد القادر من طرف القبائل، لكي يكون هو قائد ومنظّم المقاومة المسلّحة ضدّ القوّات الفرنسية الّتي احتلّت الأراضي الجزائرية، وعلى هذا الأساس نجد أن الأمير عبد القادر قد حدّد أهداف استراتيجيته العسكرية في النّقاط التّالية:

- منع الفرنسيين من التّوغل داخل البلاد انطلاقا من المدن السّاحلية الواقعة تحت سيطرتهم؛
- تنفيذ مجموعة من الإجراءات السّياسية، والعسكرية لتوحيد القبائل الجزائرية، وتشكيل مؤسسات، وهياكل الدّولة الجزائرية.
- محاربة القوّات العسكرية الفرنسية، وإلحاق الخسائر بها لإجبارها على الخروج من التّراب الجزائري.

لتحقيق هذه الأهداف الاستراتيجية، كان على الأمير عبد القادر السّعي إلى خلق الظّروف المواتية عن طريق القيام بإعداد مجموعة من الإجراءات والتّدابير السّياسية، والعسكرية، والاقتصادية، نذكر منها:

أ - توحيد القبائل العربية، وكسب التّأييد الشّعبي للمقاومة.

ب - استعادة الأمن، والقضاء على الاقتتال بين القبائل، وعلى عمليات النّهب والسّلب.

ج - تجنيد القدرات البشرية القتالية من شباب القبائل في جيش نظامي، وقوّات أخرى احتياطية غير نظامية.

د - توفير القاعدة المادية، والتّجهيزات الضّرورية (الصّناعة العسكرية، الأسلحة، الذّخيرة، التّموين...) الّتي تساعد على تعبئة قدرات عسكرية كبيرة، وحشد موارد بشرية قتالية متنوعة.

هـ - تنظيم الجيش النّظامي في صنوف أسلحة (مشاة، فرسان، مدفعية، إسناد...) وتدريبهم تدريبا عصريا، وإعدادهم لخوض المعارك، واكسابهم الخبرات القتالية الميدانية.

**ثانيا: مراحل الاستراتيجية العسكرية لمقاومة الأمير عبد القادر**

تعلمنا من دراستنا للتّاريخ العسكري، ومن نظريات، وتطبيقات فنّ الحرب، أنه لتحقيق الهدف الاستراتيجي النّهائي من الحرب، يجب المرور عبر عدة مراحل، يحقق خلال كلّ مرحلة منها مجموعة من الأهداف الجزئية، تتصاعد تدريجيا حسب الظّروف، وحسب المتغيرات الّتي يعرفها المشهد السّياسي، والموقف الجيوستراتيجي.

عندما نقوم بإسقاط، وتطبيق هذه المقاربة (التّجربة) على مقاومة الأمير عبد القادر، يمكننا أن نقول بأنّها عرفت ثلاث مراحل أساسية، هي:

- **المرحلة الأولى: الدّفاع الاستراتيجي النّشيط** (من المبايعة في فيفري 1833 إلى معركة السّكاك في سبتمبر 1836).

كان الأمير قد اكتسب في بداية هذه المرحلة تجربة قتالية ميدانية من خلال مشاركته في معركة خنق النّطاح الأولى والثّانية، ومعركة راس العين تحت إشراف وتوجيه من والده محي الدّين، وقد قام الأمير بعد مبايعته من طرف القبائل في فيفري 1833، باستشارة أهل الحلّ والعقد، وذوي الخبرة والتّجربة العسكرية من شيوخ

القبائل، وكبار المستشارين عن أفضل السّبل، وأنجع الطّرق لإبقاء جذوة المقاومة مشتعلة ضدّ المحتل الفرنسي، فخلص إلى أن أحسن وسيلة لتحقيق هذا الهدف، هي المحافظة على المكتسبات الّتي حقّقها والدّفاع عن قاعدته البشرية والمادية ومناوشة القوّات الفرنسية، ومحاصرتها كلّما سمحت ظروف الموقف العسكري، وتوفرت لديه قوّات كافية من ناحية الكمّ والنّوع.

هذا الإجراء الّذي وقع عليه اختيار الأمير عبد القادر خلال هذه المرحلة هو ما يطلق عليه في دراسات الاستراتيجية العسكرية الحديثة " **بالدّفاع الاستراتيجي النّشيط**[3] "، وهو اختيار – في رأي - يتماشى مع المشهد السّياسي، ومع الموقف الجيوستراتيجي السّائدان آنذاك، لأن أحداث التّاريخ العسكري، وخبرة الحروب بينت أن الدّفاع الاستراتيجي النّشيط عادة ما يتم اللّجوء إليه عندما تكون قوّات العدوّ تتمتعُ بتفوق كبير في الأعداد والقوّة العسكرية، لذلك تقوم القيادة العسكرية العليا الّتي تبنت هذا المبدأ بمجموعة من الإجراءات والتّدابير لزيادة أعداد قوّاتها العسكرية، وتوفير الأسلحة والمعدات اللّازمة لها، وفي نفس الوقت تدريبها، وتحضيرها للعمليات المقبلة.



يمكنني أن نجمل معالم الّتي تميزت استراتيجية الأمير عبد القادر خلال هذه المرحلة، في نقطتين رئيسيتين هما:

**1 -توحيد القبائل، واستعادة الأمن العامّ:**

كان على الأمير عبد القادر قبل أن يتفرغ لمقاومة القوّات الفرنسية المحتلّة، الاهتمام باستعادة حالة السّلم بين القبائل، وزرع الطّمأنينة في نفوس السّكان، بعد تدهور الوضع الأمني في مقاطعة الغرب الوهراني، الّذي وصفه الأغا بن عودة المزاري أحد شهود العيان قائلا: **" ولما ذهب الأتراك من وهران، والمغاربة من معسكر وتلمسان، وذلك عام ستة وأربعين من الهجري، عام ثلاثين وإحدى وثلاثين من المسيحي، قامت العرب على بعضها بعض في كلّ ناحية ومكان، وعمَّت الفتنة وعظمت البلوى في أقطار المغرب الأوسط مدّة من الزّمان ... ووقع القتال ما بين الأعراب والقرى والمدن، وصار كلّ واحد من رؤساء العرب يروم إرث مملكة التّرك إلى أن وقع الخلاط الكبير في البوادي والمدن [4]**".

بالإضافة إلى هذا، كان على الأمير إخضاع العديد من القبائل في المنطقة الغربية، وفي منطقة الّتيطري الّتي لم تعترف ببيعته، ونازعته سلطاته، مثل قبيلتي الدّوائر والزّمالة في نواحي وهران ومستغانم، وقبائل رياح وانكاد في الحدود المغربية، وقبائل الشّلف تحت زعامة الشّيخ العربي، وقبائل البرجية تحت زعامة قدور بن المخفي، وقبائل المجاهر تحت زعامة سيدي عبد الله زعيم، وبن نونه في تلمسان، وأحمد بن طاهر في أرزيو، والكراغلة في تلمسان، والباي إبراهيم في مستغانم[5].

**2 -بناء وتنظيم الجيش الأميري**

لاحظ الأمير من خلال المعارك الّتي خاضها ضدّ وحدات الجيش الفرنسي، أن القوّات الفرنسية تتوفر على قيادة مهيكلة، ومتسلسلة، طبقا لنظام معين، كما أنّها تمتلك أسلحة حديثة ومتنوعة ( المشاة – المدقعية – الهندسة ...)، وأنّها تطبق أساليب حديثة في القتال، ومنها استخلص أنه لا سبيل لمواجهة هذه القوّات الفرنسية، إلاّ بتشكيل وإعداد جيش نظامي، تسانده قوّات متطوعة من القبائل يتم تجنيدها في القتال كلما استدعت الضّرورة ذلك، فالمقاومة الآن يجب أن تكون منظمة، وتحت قيادة موحدة، وليس كما كانت في عهد والده، حيث يتجمع المقاتلون من مختلف القبائل تحت رئاسة شيوخهم، فيقاتلون منفصلين بدون خطّة حربية مسبّقة، وبعد نهاية المعركة تعود القبائل إلى مضاربها، ومواطن عيشها.

هذا الأمر لا يخدم الهدف الاستراتيجي للأمير عبد القادر، ولا يجعله يقف النّد للنّد في مواجهة القوّات الفرنسية، لذلك نجده يعمل على تكوين جيش قوّي، منظّم تنظيما عصريا، قسّمه إلى ثلاثة أصناف:

- فرق المشاة (الجيش المحمّدي)
- فرق الخيالة (الفرسان)
- فرق المدفعية (الطّوبجية)
- الحرس الأميري

بالإضافة إلى مصالح الإسناد ( التّموين – الطّب – الإمداد بالسّلاح والذّخيرة)

كما كان لدى الأمير جيش غير النّظامي يتشكل من المتطوعين، والاحتياطيين الّذين يتمّ تجنيدهم من أبناء القبائل لفترات محدّدة، أو لخوض الأعمال القتالية المحدودة في الزّمان والمكان[6].

**3 –أهمّ النّشاطات العسكرية خلال المرحلة الأولى:**

رغم أنّ الأمير عبد القادر اختار موقف المدافع عن دولته النّاشئة خلال هذه الفترة، إلاّ أنّه كان يقوم بتنفيذ العديد من النّشاطات العسكرية بنفسه، أو يأمر خلفائه بتنفيذها، مثل الهجومات السّريعة، والإغارات الخاطفة، والكمائن المفاجئة وغيرها، وذلك حسب إمكانيات قوّاته العسكرية (العددية والمادية) الّتي كانت لا ما تزال في طور التّكوين، وحسب ظروف المواقف العسكرية النّاشئة.



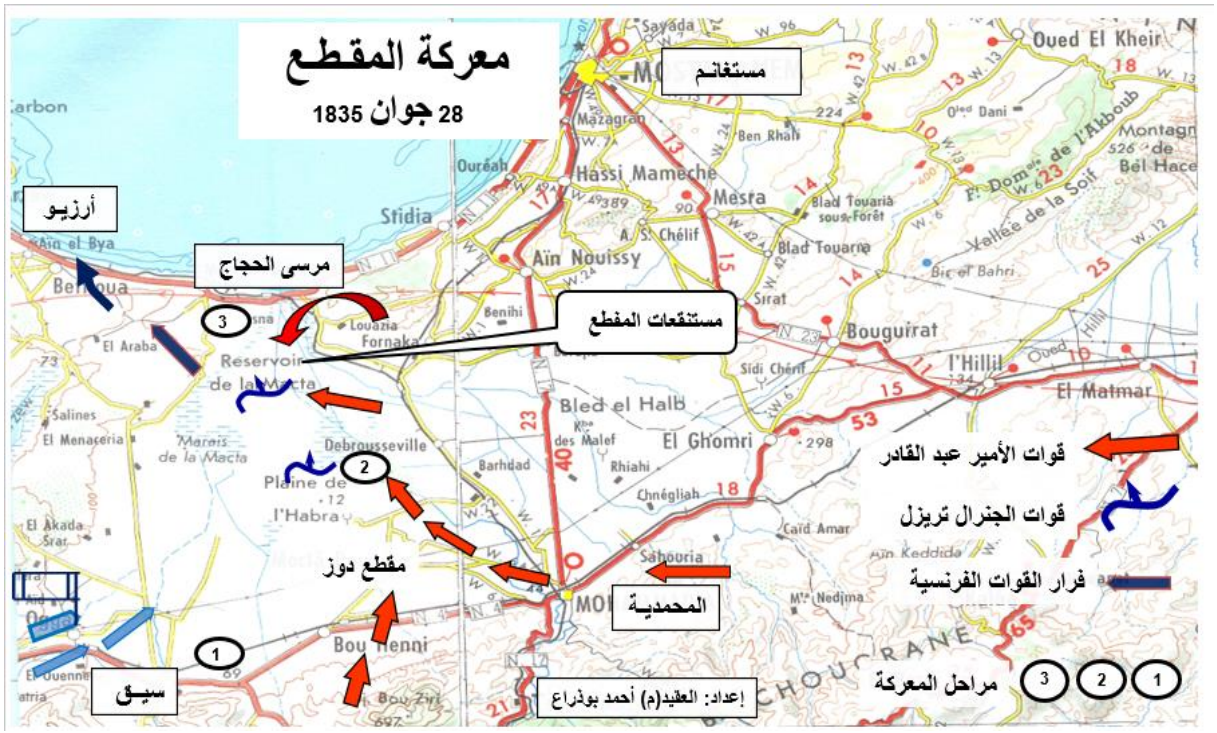
نجحت هذه النّشاطات العسكرية في إلحاق بعض الخسائر البشرية في صفوف قوّات العدوّ، وفي تدمير وتخريب بعض تحصيناته، وهو ما جعل قادة العدوّ في وهران، وفي الجزائر يلحون في تقاريرهم الرّسمية الّتي يرسلونها إلى السّلطات العسكرية في باريس (وزير الحربية) على إرسال المزيد من القوّات، والإمدادات نظرا لضراوة المعارك، والاشتباكات الّتي كانت القوّات الجزائرية تقوم بها[7]، نذكر منها على سبيل المثال:

- معارك ضدّ الجنرال ديميشيل (معركة الكرمة يوم 27 ماي 1833، ومعركة عين البريدية يوم 11 جوان 1833، والهجوم على مدينة أرزيو يوم 3 جولية 1833، والهجوم على مدينة مستغانم يوم 27 جولية 1833)[8].

- معارك ضدّ الجنرال تريزل (معركة غابة مولاي إسماعيل يوم 26 جوان 1835، ومعركة المقطع يوم 28 جوان 1835 الّتي منيت فيها القوّات الفرنسية بهزيمة منكرة، وبرزت فيها مهارة الأمير العسكرية، وتطبيقه الجيّد لمبادئ فنّ الحرب[9]).

- معركة السّكاك ضدّ الجنرال بيجو في شهر جويلية 1836 الّتي شهدت هزيمة الأمير عبد القادر في مواجهة قوّات فرنسية كبيرة بقيادة الجنرال بيجو نفسه الّذي قدم من فرنسا ومعه ثلاث أفواج من المشاة والقناصة، وقطع المدفعية، بالإضافة إلى القوّات الفرنسية الّتي قدمت من وهران وتلمسان)[10].

تميزت المعارك في المرحلة الأولى بأن أغلبها كانت عبارة عن هجومات مباغتة للتّحصينات العسكرية، أو مواجهات قتالية ضدّ القوّات الفرنسية الّتي كانت تنطلق من مدينة وهران لتنفيذ عمليات عسكرية ضدّ القوّات الجزائرية، أو تجريد حملات عسكرية ضدّ القبائل المؤيدة لمقاومة الأمير عبد القادر.



**- المرحلة الثّانية: البحث عن التّوازن الاستراتيجي** (من معاهدة التّافنة ماي 1837 إلى نهاية سنة 1841)

شهدت بداية سنة 1837 تعيين اللّواء دامريمون حاكما عاما على الجزائر، وبعد فترة، في 05 ماي 1837 عزل وزير الحربية الفرنسي العميد ( الجنرال) دوبروسار ( De Brossard ) عن قيادة مقاطعة وهران، وعين **اللّواء (الجنرال) بيجو بدلا منه، وكلّفه بمهمة إجراء مفاوضات مع الأمير عبد القادر، بغرض التّوقيع على** معاهدة لتوقيف الحرب، وهو ما حدث بتاريخ 30 ماي سنة 1837 حيث وقع الطّرفان معاهدة التّافنة[11].

استغلّ الأمير عبد القادر فترة وقف القتال بينه وبين القوّات الفرنسية، لكسب المزيد من القبائل، والتفافها حوله، وتوحيدها تحت راية واحدة، وإقناع الشّعب للوقوف صفّا واحدا معه، وتوسيع مساحة دولته، بالإضافة إلى مواصلة جهود تنظيم وتطوير جيشه النّظامي، وتزويده بالإمكانيات المادية الضّرورية، والأسلحة والذّخيرة في إطار البحث عن تحقيق "**استراتيجية التّوازن الاستراتيجي**[12]" الّتي تهدف إلى بلوغ مستوى تحضير الدّولة، وقواتها المسلّحة للوقوف النّد للند في وجه القوّات الفرنسية المحتلة.

من خلال تتبع مسار الأحداث أثناء هذه الفترة، نجد أن الأمير عبد القادر قد سعى إلى إكساب المقاومة مصداقية على المستوى الدّاخلي، والاعتراف بها خارجيا، بما يؤكد التّصميم والعزم على تحقيق الهدف الاستراتيجي الّذي خطّط له منذ مبايعته لقيادة المقاومة.

**1 -عناصر تحقيق التّوازن الاستراتيجي:**

يمكنا أن نستخرج بعض العناصر الّتي تميزت بها فترة التّوازن الاستراتيجي، الّذي سعى الأمير عبد القادر إلى تحقيقه باستغلاله لفترة الهدوء بينه وبين الفرنسيين عقب الإمضاء على معاهدة تافنة، وهي:

**أ-تصفية الجبهة الدّاخلية، وتعزيز الوحدة الوطنية:**

كان من مزايا الهدنة الّتي وفرتها معاهدة التّافنة، أن الأمير عبد القادر استغلها في التّفرغ إلى تنقية وتصفية الجبهة الدّاخلية، الّتي كانت تموج بالاضطرابات القبلية، وحركات الانشقاق المتعددة الأسباب، فقام بتجريد حملات عسكرية، وجه خلالها ضربات قاضية إلى زعماء القبائل المنشقين عن صفوف الشّعب، والمعارضين للمقاومة، الّذين قبلوا بحماية العدوّ، والتّعامل معه، وقد أدّت هذه الانتصارات العسكرية إلى توسيع نفوذه، وفي نفس الوقت كان يبذل الجهود مستعينا برجال الدّين، وبعض زعماء القبائل الموالين له، لتوحيد صفوف القبائل والشّعب، والسّعي لتعزيز الوحدة الوطنية، من أجل الوصول إلى تحقيق الهدف الاستراتيجي الّذي يتمثل في إخراج العدوّ المحتل من الجزائر عن طريق المقاومة المسلّحة الشّعبية، كما عمل على إرساء أركان الدّولة الجزائرية الحديثة، الّتي تعتمد بالأساس على تقوية الجبهة الدّاخلية. وقد كان لهذه الإنجازات وقع كبير، وأثر طيب في زيادة سمعة الأمير، والرّفع من مكانته بحيث "**ضمنت له وضعية الزّعيم الأقوى، الّذي استغلّ ذلك الو اقع في وضع أسس مشروع الدّولة الجز ائرية الحديثة**[13]".

**ب - التّنظيم السّياسي والإداري للدّولة الفتية:**

في إطار إعطاء البعد الوطني للمقاومة الشّعبية، قام الأمير عبد القادر بتنظيم الدّولة الجزائرية الفتية إلى مقاطعات إدارية، وتأليف حكومة بسلطاتها التّشريعية، التّنفيذية، والقضائية في عاصمة الدّولة، وتعيين خلفاء على المقاطعات الثّماني التّالية[14]:

1. مقاطعة تلمسان: عاصمتها تلمسان ولها مرسى (ميناء رشقون)، ولّى عليها محمّد البوحميدي الولهاصي.
2. مقاطعة معسكر: عاصمتها معسكر ولها مرسى ( ميناء أرزيو)، ولّى عليها الحاج مصطفى بن أحمد التّهامي.
3. مقاطعة مليانة: عاصمتها مليانة ولها مرسى ( ميناء شرشال)، ولّى عليها محمّد بن علال القليعي.
4. مقاطعة تيطري: عاصمتها المدية، ولّى عليها محمّد البركاني.
5. مقاطعة مجانة: عاصمتها سطيف، ولّى عليها محمّد بن عمر العيسوي.
6. مقاطعة الزّيبان والصّحراء الشّرقية : عاصمتها بسكره، ولّى عليها محمّد الصّغير بن عبد الرّحمن بن أحمد.
7. مقاطعة القبائل : عاصمتها برج حمزة. (البويرة حاليا) ولّى عليها أحمد بن سالم الدّبيسي.
8. مقاطعة الصّحراء الغربية : عاصمتها الأغواط. ولّى عليها قدور بن عبد الباقي.

وقد اتسعت الرّقعة الجغرافية لدولة الأمير عبد القادر، فتحولت مجموع القبائل العربية إلى مقاطعات، وعمل على تنظيم حياتها المدنية والعسكرية، وتكوين جهاز إداري يمكنه من إحلال النّظام بدل الفوضى وترتيب شؤون دولته[15].

**ج-مواصلة تطوير الجيش الجزائري:**

واصل الأمير عبد القادر اهتمامه ببناء الجيش النّظامي، وكلّ ما يتعلق بالشّؤون العسكرية وأفرد له عنايته الخاصّة، لأنه كان قد عرف من خلال تجاربه الميدانية الشّخصية، واطلاعه، واحتكاكه بنظم هيكلة وتسيير وتسليح القوّات الفرنسية، أنه إذا أراد تحقيق هدفه الاستراتيجي عليه بجيش قوّي يضاهي القوّات الفرنسية، لذلك نجده يركز على تعبئة كلّ الطّاقات البشرية والمادية المتوفرة لصالح قوّاته المسلّحة، ومحاولة نشرها على كافة مقاطعات الدّولة تحت قيادة خلفائه.

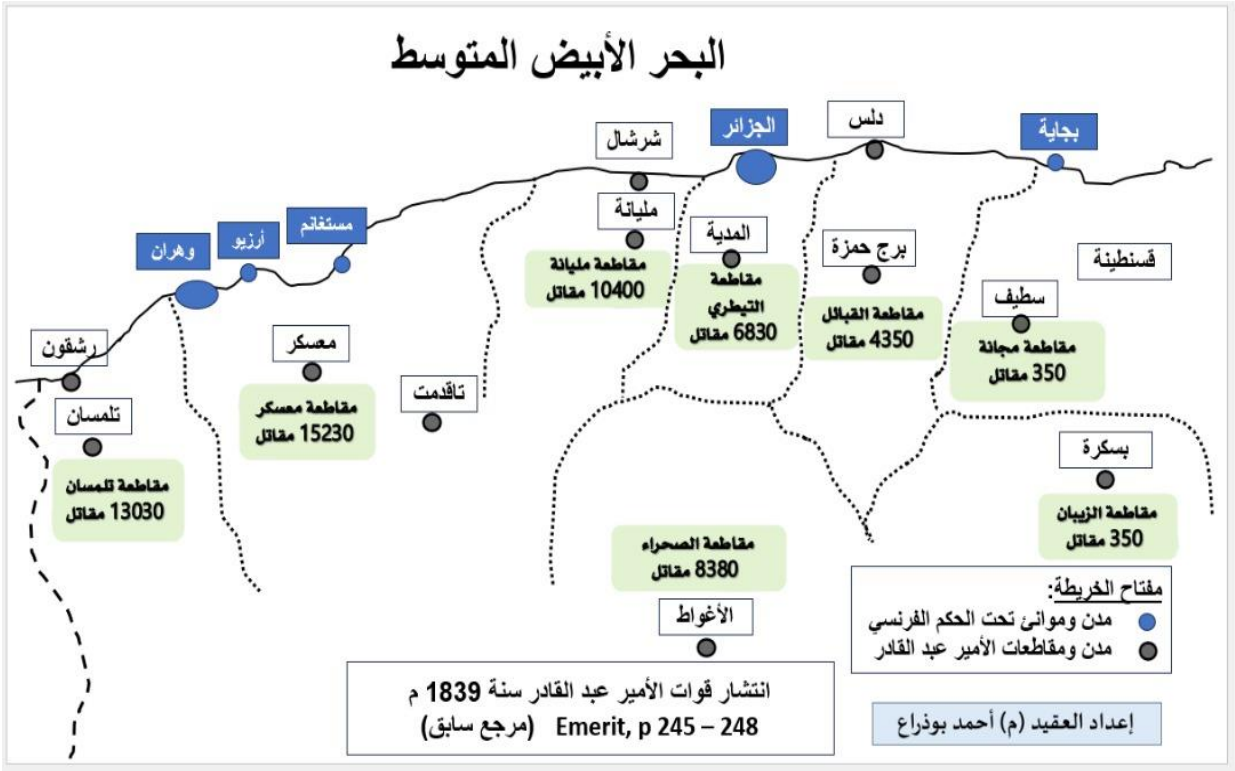
لتسهيل مهمة خلفائه، وزع المدربين المكلّفين بالجيش النّظامي على المقاطعات، فأعطى لكلّ خليفة ألف (1000) جندي، و 250 فارس، وزودهم بمدفع ميدان[16].

- انتهج الأمير عبد القادر في بناء قوّاته المسلّحة منهجية عصرية تتماشى مع ظروف الموقف السّياسي والاستراتيجي، ومع الإمكانيات الاقتصادية المتوفرة، لأنه كان يعي جيّدا أنّ بناء القوّات هو عنصر من نظرية البناء العسكري الّتي يجب معالجة إشكالياتها بالتّدريج، وباعتبار التّحديات المستقبلية.

- تشجيع الشّباب على التّجنيد في الجيش النّظامي، وتقديم التّحفيزات المادية والمعنوية له، مع تقديم ضمانات من خلال التّعاقد الرّسمي الموثق، الّذي يترتب عليه حقوق، وواجبات للمجنّد، وقد وردت تفاصيل كثيرة متعلّقة بهذا الجانب في القانون العسكري " وشاح الكتائب ....[17]".

- تحضير أبناء ورجال القبائل القادرين على حمل السّلاح، وهيكلتهم في جيش المتطوعين (الجيش غير النّظامي) الّذي يعتبر لفتة ذكية، وعبقرية في التّفكير العسكري الاستراتيجي، في إطار إعداد الدّولة والشّعب للدّفاع عن الوطن، باعتبار هذا الرّصيد البشري الاحتياطي، ممونا رئيسا، ومصدرا لزيادة أعداد الجيش النّظامي في حالة الحاجة إلى تعبئة موارد الدّولة البشرية، وهذا الإجراء هو تكريس، وترسيخ لثقافة المواطنة لدى الشّعب.

في البداية كان هؤلاء المتطوعين يلتحقون بصفوف القوّات المحاربة مستعملين أسلحتهم الشّخصية من سيوف وبنادق، وبعضهم كان يملك حصانا فيساهم به، وقد وجدت دولة الأمير صعوبات في البداية للقيام بتموين وتغطية مستلزمات هؤلاء المتطوعين، غير أنّها مع مرور الوقت، ومع زيادة مداخيل الدّولة، وتنظيم التّرتيبات المتعلقة بالشّؤون اللّوجستيكية، تم التّكفل بهم على أحسن ما يرام[18].




د-**التّكوين والتّدريب العسكري** فبالإضافة إلى الخبرة العسكرية الجزائرية، عمد الأمير إلى تجنيد العديد من الضّباط وضباط الصّف الأجانب، كما استفاد من خبرة وتجربة مجموعة من الفارين الفرنسيين، لاسيما من عناصر اللّفيف الأجنبي الّذين انضمّوا إلى صفوف الجزائريين، وكان الأمير يحثّ جنوده على طاعة مدربهم،

واكتساب المعارف، والمهارات القتالية، والتّحكم في الأسلحة حتّى يكونوا مؤهلين لمحاربة الجيش الفرنسي، أمّا الفرسان النّظاميون، فأعفوا من التّدريب، باعتبارهم يمتلكون كفاءات قتالية، وتقاليد حربية كافية[19].




**هـ-محاولة بناء صناعة عسكرية، وتشكيل الاحتياطات الاستراتيجية:**

تعتبر مشكلة تسليح الجيش من أهم الصّعوبات الّتي واجهت الأمير عبد القادر منذ بداية المقاومة ضدّ الاحتلال الفرنسي، وقد ازداد الطّلب على الأسلحة والذّخيرة بعد تنظيم الجيش وزيادة أعداده، وانتشار وحداته في المقاطعات، ومن أجل التّغلب على هذه المشكلة اجتهد الأمير في تزويد جيشه بالأسلحة والذّخيرة بواسطة عمليات الشّراء من مصادر متنوعة، فتحصّل على بنادق فرنسية وإنجليزية وعلى كميات كبيرة من الذّخيرة والبارود أيضا، كما كان يغنم الأسلحة والذّخيرة أثناء المعارك الّتي خاضها ضدّ القوّات الفرنسية أو القبائل المتحالفة معها.

وقام بإنشاء عدّة معامل، ومشاغل لصناعة الأسلحة، والبارود والذّخيرة في مدن معسكر، تلمسان، مليانة، والمدية، وكان تشغيل هذه المعامل والمصانع عن طريق الحرفيين الجزائريين، وبعض الأتراك الّذي التحقوا بالمقاومة، ثمّ دعمهم بعناصر محترفة، ذوي خبرة، من عناصر أجنبية من جنسيات مختلفة، بالإضافة إلى عمليات استيراد الاسلحة والذّخيرة من الخارج.

كما عيّن في كلّ مقاطعة خياطين وصانعي الدّروع والسّروج لصنع ملابس الجند وإصلاح الأسلحة والحفاظ على عُدَةِ الخيول[20].

قام أيضا بتحضير ما يعرف " **الاحتياطات الاستراتيجية** " الّتي كانت توضع في مخازن ومستودعات تمّ تهيئتها لهذا الغرض، لاستعمال مخزونها أثناء الحرب، ومساعدة السّكان في المواسم السّيئة، وهذا ممّا ساعد جيش الأمير على مواصلة القتال رغم صعوبات التّموين، وشحّ الإمدادات، تمثلت الاحتياطات في الوسائل المادية من المواد الغذائية ( القمح، الشّعير، الذّرة ...) الّتي كانت تخزّن على مختلف مستويات (حلقات) التّأمين اللّوجستيكي، المخصّصة لتلبية الاحتياجات المادية للقوّات في وقت الحرب، وتوزع منها كميات في وقت السّلم لصالح المحتاجين من أفراد القبائل.

يبدو لي من خلال تتبعي للكتابات الّتي أرّخت لفترة الأمير عبد القادر أنه كان يوزع الاحتياطات الاستراتيجية حسب أصنافها على سلسلة القيادة في مقاطعاته الإدارية، مع إعطائهم تعليمات صارمة تتعلق بالمحافظة عليها في حالة جيدة أثناء تخزينها، وألاّ يتمّ استهلاكها إلاّ بصدور تعليمات مباشرة عنه، أو عن خلفائه شخصيا[21].

**و- بناء منظومة دفاعية ثابتة**

تنبّه الأمير عبد القادر بعد سقوط مدينة معسكر في ديسمبر 1835، وتلمسان في جانفي 1836 إلى أهمية بناء منشآت وتحصينات دفاعية يتم اختيار مواقعها وفق شروط معيّنة، تكون بعيدة عن مكان تمركز القوّات الفرنسية، بحيث تؤدي إلى تحقيق أربعة أهداف رئيسية هي:

- جعلها مواقع للحماية من الأرتال الفرنسية المتحرّكة.
- تكون قواعد انطلاق العمليات العسكرية المستقبلية ضدّ الجيوش الفرنسية.
- تسهل عملية المراقبة والسّيطرة على القبائل المنتشرة في تلك النّواحي.
- الإشراف على التّجارة باعتبارها ملتقا تجاريا بين التّل والصّحراء، لأنّها تمسك بمصادر الرّزق لقبائل الصّحراء[22].

لهذا الغرض، نجده يقوم بإنشاء عاصمة جديدة (تاقدمت)، ويأمر بإنشاء مجموعة من القلاع والحصون، وقد شرح الأمير بنفسه للعقيد تشرشل الغرض من بناء هذه المنشآت، حيث جاء على لسان الأمير قوله: **" لقد أقمت على حدود التّل عددا من الحصون كلّفتني أموالا طائلة بينما كنت أواجه صعوبات جمّة. وكان الهدف من إقامتها هو إشعار قبائل الصّحراء المضطربة بالسّلطة والابتعاد عن هجوماتكم، ولكنكم قد حطمتم هذه الحصون فيما بعد. لقد كانت تقع من جهة الغرب في سبدو، وفي سعيدة بالنّسبة لجنوب تلمسان، وفى تاقدامت بالنّسبة لجنوب معسكر، وفي تازة بالنّسبة لجنوب شرق نفس المدينة (معسكر)، وفى بوغار بالنّسبة لجنوب مليانة، وفي بلخورط (الواقعة جنوب - شرق مدينة الجزائر) بالنّسبة للمدية، وأخيرا في بسكرة بالنّسبة لجنوب قسنطينة**[23]".

**- النّشاطات العسكرية خلال المرحلة الثّانية:**

بعد إمضاء معاهدة التّافنة توقف التّوسع الفرنسي، وأصبح كما قال العقيد تشرشل: **" محصورا في بضع مدن ساحلية مع مناطق مجاورة ضيّقة جدّا، بينما بقيت كلّ القلاع والمراكز الهامّة في داخل البلاد في أيدي** خصمهم المنتصر، وبكلمة واحدة فإن عبد القادر أصبح يسيطر على ثلثي الأراضي الجزائرية، بالإضافة إلى الصّيت الّذي زاده هذا الانتصار العظيم تأثيرا وسلطة[24]".

وقد التزم الأمير عبد القادر باحترام بنود المعاهدة، ولم يقم بأي نشاط عسكري، وقتال الفرنسيين إلاّ بعد أن وجد نفسه مضطرّا إلى ذلك، والسّبب يعود إلى قيام الجنرال فالي بعمل استفزازي، تمثل في عبوره على رأس رتل عسكري رفقة الدّوق أورليان ابن ملك فرنسا من قسنطينة إلى الجزائر مرورا بمنطقة بيبان الحديد إلى مدينة الجزائر العاصمة، وهو ما اعتبره الأمير عبد القادر اعتداء على أراضي تابعة له، فبعث برسالة إلى الجنرال فالي بتاريخ 18 نوفمبر 1839 م يعلن له فيها انتهاء الهدنة[25]، وفي نفس الوقت أصدر أوامره إلى خلفائه وقادة جيشه للقيام بمهاجمة كلّ المراكز العسكرية الفرنسية دون استثناء، ومحاصرتها من جميع الجهات، وقد شهدت الفترة بين نهاية سنة 1839 إلى نهاية سنة 1841 العديد من النّشاطات العسكرية، نذكر منها باختصار:

1 – **تنفيذ قوّات الأمير لهجومات شاملة** على المراكز العسكرية، والحاميات بسهل المتيجة بداية من 23 نوفمبر، كانت من نتائجها " **سقوط كلّ المراكز العسكرية الّتي كانت تفتقر إلى المدافع، وتم تخريبها". ممّا أجبر الحاكم العامّ الجنرال فالي إلى اصدار أوامره بإخلاء أغلب المراكز العسكرية**[26]".

كما شملت الهجومات مزارع المستوطنين في منطقة المتيجة، وفي ضواحي الجزائر العاصمة، وتدميرها تدميرا كاملا " **فساد الاضطراب، والفوضى بعد الهدوء الّذي كان من قبل، وهرع النّاس إلى إخلاء كلّ المنازل الرّيفية بضاحية الجزائر، ومنها منزل المارشال فالي نفسه الموجود بمنطقة مصطفى، وراجت شائعات في أوساط السّكان بأنه سوف تقع حركة تمرد في الجزائر**[27]"، ونفّذت القبائل هجومات مباغتة على القوافل والأرتال الفرنسية المكلّفة بنقل الإمدادات، وحراسة قوافل التّموين الفرنسية مثل الهجوم الّذي وقع "يوم 20 نوفمبر 1840 على قافلة عسكرية كانت متوجهة من بوفاريك إلى واد العلايق، كانت خسائر الفرنسيين معتبرة، تمثّلت في مقتل 108 عسكري، وإصابة العشرات من الجرحى[28].

أمّا المقاطعة الغربية فقد تعرّضت منذ أواخر شهر نوفمبر إلى تنفيذ حصار شامل على مدينة وهران، وعلى التّحصينات والأبراج القريبة منها، مثل: برج سانت أندريه (fort Saint-André) - وبرج أورليان (fort Orléans) – وبرج كارغينطا ( Karguentah) - والبرج الجديد (Châteauneuf) - وبرج سان فيليب ( Saint-Philippe)، وتسيير دوريات لمراقبة تحركات القوّات الفرنسية، ومنع اتصال أفراد من القبائل المتحالفة معهم، وفي شهر ديسمبر هاجم ابن التّهامي خليفة معسكر حامية مزغران، كما هاجم ابن التّهامي خليفة معسكر حامية أرزيو، ومن جهته هاجم البوحميدي خليفة تلمسان حامية مسرغين، وأطبق عليها الحصار[29].

**2 - الهجومات المضادّة الفرنسية** الّتي شُرع في تنفيذها بعد وصول تعزيزات عسكرية كبيرة من فرنسا، بحيث بلغ عددها في الجزائر أكثر من 30 ألف عسكري من المشاة، والفرسان، مدعمين بعدّة بطاريات من المدفعية، وسريا الهندسة العسكرية، تحت قيادة الجنرال فالي أدت إلى وقوع عدّة معارك واشتباكات، وأحداث عسكرية أخرى، نذكر أهمها باختصار فيما يلي[30]:

- يوم 15 مارس 1840 احتلال مدينة شرشال.

- يوم 27 أبريل 1840 وقوع معركة العفرون ( تعرف أيضا بمعركة غابة كرزازة) بين قوّة فرنسية تقدر بعشرة آلاف عسكري، والقوّات الجزائرية تحت قيادة بن علال سيدي مبارك.

- يوم 12 ماي 1840 وقوع معركة الثّنية **(تعرف أيضا بمعركة مرتفع موزاية)** الّتي قادها الأمير عبد القادر بنفسه، وخسرت فيها القوّات الفرنسية أكثر من 300 عسكري، مقابل خسائر كبيرة في صفوف القوّات الجزائرية.

- يوم 17 ماي 1840 احتلال مدينة المدية.

- يوم 08حوان 1840 احتلال مدينة مليانة، الّتي كان الأمير عبد القادر قد أمر سكانها بإخلائها قبل دخول الفرنسيين.

تميزت هذه المرحلة بفترة هدوء دام حوالي سنتين بعد إمضاء معاهدة التّافنة، ليستأنف الطّرفان القتال إثر خرقها من قبل الحاكم الفرنسي، فكانت الحرب سجالا بينهما، غير أن الغلبة في الأخير كانت للفرنسيين الّذين وصلتهم تعزيزات عسكرية كبيرة من فرنسا عن طريق البحر، ورغم هذا فقد بقيت المقاومة صامدة، تؤيدها العديد من القبائل في الوسط، والغرب، وفي بعض مناطق الشّرق، والجنوب الصّحراوي.

**- المرحلة الثّالثة: من تعيين الجنرال بيجو حاكما عاما في الجزائر فيفري 1841 حتّى توقيف القتال في ديسمبر 1847**

عيّنت الحكومة الفرنسية الجنرال بيجو حاكما عامّا في الجزائر بتاريخ 22 فيفري 1841، وكلّفته بمواصلة تطبيق سياسة احتلال المزيد من المناطق في الجزائر، والقضاء على مقاومة الأمير عبد القادر، وكانت خطته العسكرية تعتمد على النّقاط التّالية [31]:

أ - الزّيادة في القوّات العسكرية الفرنسية الّتي كان يبلغ تعدادها في منتصف فيفري 1841 أكثر من 83 ألف مقاتل، وقد وصلت إلى الجزائر التّعزيزات العسكرية الواحدة تلو الأخرى، حتّى بلغ عدد القوّات الفرنسية في سنة 1844 أكثر من 108 ألف عسكري، يقودهم ضباط عمداء (جنرالات) وعقداء متخرجين من الأكاديميات، والمدارس العسكرية، كانوا قد اكتسبوا خبرات، وتجارب قتالية من خلال مشاركتهم في حروب نابليون، وفي الحملات العسكرية في إسبانيا، وبلجيكا، وفي دول البلطيق. ممّا يعني أن ثلث الجيش الفرنسي في ذلك الوقت كان في الجزائر، هذا بالإضافة إلى آلاف المقاتلين من القبائل الجزائرية الّذين كانوا يشاركون الفرنسيين القتال ضدّ أبناء وطنهم.

ب – توجيه جزء من هذه القوّات للاستقرار بصفة دائمة في المدن السّاحلية لضمان السّيطرة عليها، وحمايتها من أيّ هجمات محتملة، مثل مدن الجزائر، البليدة، مليانة، شرشال، قسنطينة، عنابة، وتعيين قادة مكلّفين بمهمّة توفير الإمدادات، والتّموين المستمر لها.

ج – تشكيل وحدات عسكرية متحركة (على شكل أرتال) مهمتها مطاردة قوّات الأمير عبد القادر، وخلفائه في الدّاخل، ومهاجمة القبائل المتعاطفة معه، أو المساندة له، وترهيبها، ثمّ إجبارها على الخضوع للسّلطة الفرنسية عن طريق التّرغيب بالمكاسب المالية، وشراء الذّمم، وزرع الفرقة والشّقاق بينها.

د - الهجوم على المدن، والتّحصينات الّتي أقامها الأمير عبد القادر في التّل والجنوب ( المدية – معسكر – تلمسان – تاقدمت – تازة – بوغار - سعيدة ...) واحتلالها، لحرمانه من استغلالها لصالح مجهوده الحربي، وبناء مدن، ومراكز عسكرية جديدة مثل (الشّلف – ثنية الحد – سور الغزلان– تيارت ... ) وتعيين قوّات عسكرية تقيم فيها بصفة دائمة، مهمتها محاصرة ومطاردة الأمير عبد القادر، وكذلك العمل على إخضاع القبائل المجاورة، وفي نفس الوقت تقوم بتقديم التّعزيزات العسكرية، والاسناد اللّوجستيكي للأرتال العسكرية المتحركة الّتي تنشط قريبا منها.

هـ - وضع قوّات عسكرية تحت تصرف عمداء (جنرالات)، وضباط سامون تنشط على كلّ المحاور والمعابر الّتي كان يتنقل عليها الأمير عبد القادر في مقاطعة وهران، وعلى الحدود المغربية، وفي المقاطعات الوسطى بهدف منعه من التّنقل بسهولة، ولما لا القبض عليه، كما يقوم هؤلاء الضّباط بتجنيد العملاء والخونة من القبائل لمراقبة الأمير، ومنعه من الاتصال بالقبائل الموالية له خوفا من تجنيده لقوّات إضافية.

أطلق الجنرال بيجو يد قادة جيشه، وأوصاهم بتطبيق الحرب الشّاملة ضدّ الجزائريين (الأرض المحروقة، قمع السّكان بوحشية، شراء الذّمم، منع الأهالي من القيام بأعمال الحرث، والزّرع، والرّعي، والحصاد) وكانت هذه الأساليب قد زرعت الرّعب في نفوس الجزائريين، وأضعفت روح المقاومة لدى القبائل، ودفعت العديد منهم إلى الخضوع للسّطلة الفرنسية حفاظا على أرواحهم، وأرزاقهم، وقد سمحت هذه الاستراتيجية للقوّات الفرنسية

بالسّيطرة على مدن مقاطعة وهران ( معسكر، تلمسان، تاقدمت) وسقوط الحصون والقلاع ( سبدو، سعيدة، تازة، بوغار)،

كما خضعت أغلب قبائل مقاطعة التّيطري، واستسلم خليفة برج حمزة في نواحي البويرة، وسقطت مدينة تنس الّتي تعتبر آخر ميناء الّذي كان تحت سيطرة الأمير عبد القادر، وكان استيلاء الفرنسيين على الزّمالة العاصمة المتنقلة يوم 16 من ماي 1843 ضربة قاصمة، وخسارة كبيرة للأمير عبد القادر[32].

**1-الأمير عبد القادر واستراتيجية الحروب الثّورة**

لم يجد الأمير عبد القادر في مواجهة التّفوق العسكري الفرنسي في العدّة والعتاد، إلاّ الاعتماد على أساليب وطرق تسمح له بتجنّب المواجهة المباشرة للقوّات العسكرية الفرنسية سواء الثّابتة في المدن، وفي المحميات، أو المتحركة على شكل أرتال، مستغلا في ذلك معرفته الجيدة بتضاريس القطر الجزائري، وخفة حركته، وحركة قوّاته من الفرسان والمشاة، وهذه الأساليب الّتي طبّقها الأمير عبد القادر هي ما يعرف في العلم العسكري الحديث باستراتيجية الحروب الثّورية الّتي تعتمد على الاقتراب غير المباشر، وانتهاج أساليب حرب العصابات.

يبدو لنا من خلال الدّراسة المتأنية للأحداث الّتي عرفتها هذه المرحلة من النّاحية الاستراتيجية، أن الأمير عبد القادر كان يأمل في حدوث تغييرات في الظّروف، والمواقف السّياسية الدّولية ( إنجلترا – الدّولة العثمانية – إسبانيا) ، وفي السّياسة الدّاخلية الفرنسية، ممّا يخدم مصالحه، ويسمح له بإعادة تجديد حركية المقاومة المسلّحة، والاستفادة من الدّعم المباشر للقبائل المؤيدة له، وانخراط المزيد من المقاتلين المتطوعين، لتعويض الخسائر الّتي تسببت فيها المعارك، والاشتباكات في صفوف قوّاته، بغرض إفشال الخطة العسكرية للجنرال بيجو، ودفعه لإعادة النّظر في استراتيجيته العسكرية، ولما العودة إلى المفاوضات، وعقد معاهدة جديدة.

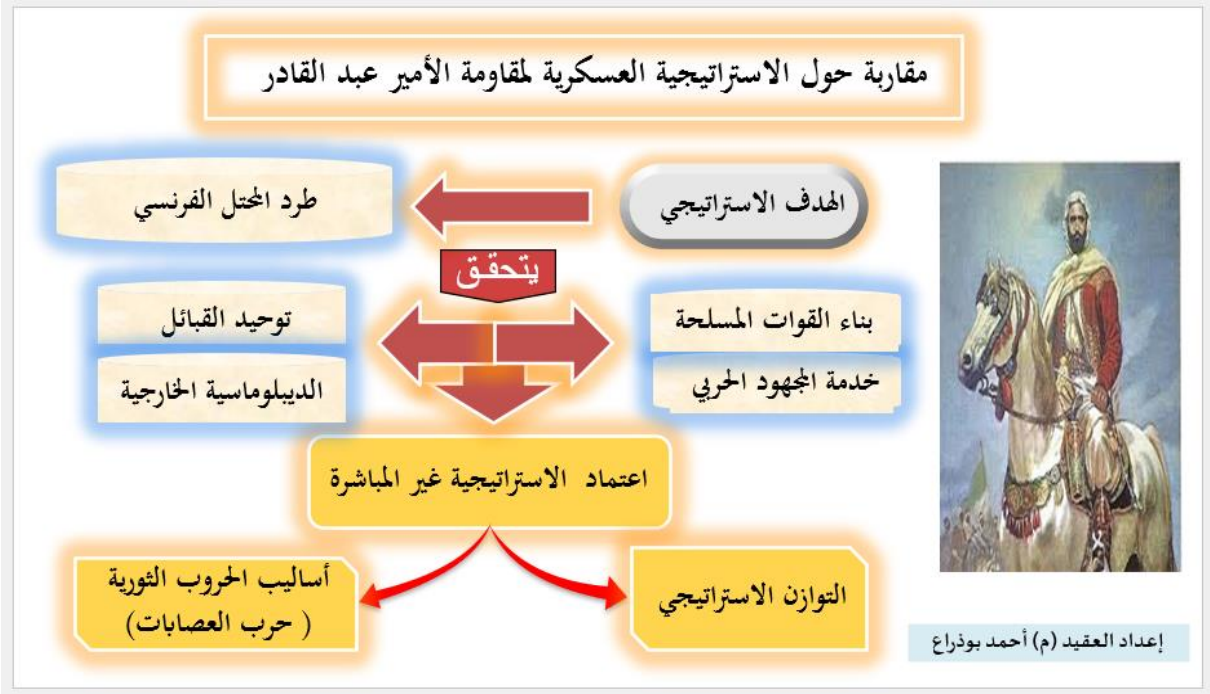
كانت استراتيجية الحروب الثّورية الّتي اعتمدها الأمير عبد القادر تطبّق أساليب حرب العصابات المعروفة (الكمائن – الغارات – الهجومات المباغتة – اعتراض قوافل التّموين ...) والّتي كانت تهدف أساسا إلى إشغال القوّات الفرنسية بصفة مستمرة، ومنعها من التّمتع بالرّاحة والهدوء، ممّا يتسبب في التّأثير سلبيا على عساكر العدوّ معنويا وبدنيا.

**برع الأمير عبد القادر في ميدان الاستخبارات (والاستطلاع) عن طريق تجنيد الجواسيس، والعيون، والأرصاد، فكان قبل خوصه لأي معركة، أو تنفيذ أي نشاط عسكري يحرص على أن يجمع أكبر قدر من المعلومات عن قوّات العدوّ، وعن أرض المعركة المقبلة، فكان غالبا ما يقوم بنفسه** بقيادة قوّاته رغم قلّة عددها، أو عن طريق ما تبقى من خلفائه بتنفيذ الهجومات الخاطفة والسّريعة، واعتراض مسالك قوافل الإمداد والتّموين، لتعطيل وصولها إلى حاميات العدوّ، أو الاستيلاء عليها، كما كان ينصح شيوخ القبائل الموالية له على تقصي أخبار العدوّ قبل تنفيذ الغارات، والهجومات الخاطفة على المراكز العسكرية المعادية، وعلى القوّات

المتحركة، لإلحاق أكبر الخسائر البشرية بها، وكان يوصي قادته بتجنب نقاط العدوّ القوّية، والابتعاد عن القيام بهجمات جبهيه قدر الإمكان.

لخّص لنا العقيد هنري تشرشل بعض معالم استراتيجية الحروب الثّورية كما سمعها من الأمير عبد القادر، حيث كتب: **" أعطى الأمير إلى خلفائه وشيوخه الأوامر بأن لا يحاربوا الفرنسيين ثانية في جمع كبير، بل عليهم أن يقتصروا على مضايقتهم ومطاردة أجنحتهم وأعقابهم، وقطع خطوط اتصالاتهم، والوقوع على معداتهم ووسائل نقلهم، والتّراجع الخادع، ونصب الكمائن، والهجوم المفاجئ لإذاعة الارتباك والحيرة والدّهشة فيهم**[33]".

برهن الأمير عبد القادر على حسن تطبيقه لأساليب الحروب الثّورية، وبتحكم كبير في إدارة النّشاطات القتالية، وقيادة القوّات تحت إشرافه الشّخصي في العديد من المعارك، والكمائن ممّا كان يتسبب في إرباك قادة العدوّ، ويدفعهم إلى القيام بردود أفعال غير مدروسة، تكون نتائجها في غير صالحهم، وهو ما كان يدفع بالقوّات الفرنسية إلى بذل الجهود الإضافية الّتي كانت تؤثر على قدراتهم المعنوية والمادية، وهكذا نجد استراتيجية الأمير عبد القادر أجبرت الجنرال بيجو على وضع معظم قوّاته في حالة تأهب قصوى، فكانت مجموعات القوّات الّتي شكلها، ووزعها على ثمانية عشر رتلا يقدر عددها بأكثر من تسعين( 90) ألف عسكري تتحرّك بصفة دائمة، ليلا ونهارا بحثا عن الأمير عبد القادر، ومطاردته في كلّ مكان يبلغ مسامعها خبر تواجده فيه[34].



**2- شهادات عن استراتيجية الحرب الثّورية للأمير عبد القادر:**

نقدم للقارئ الحصيف شهادات الضّباط الفرنسيين والأجانب، وكتابات المؤرخين الفرنسيين حول معالم استراتيجية الحرب الثّورية للأمير عبد القادر، وقد تعمدنا عدم نقل شهادات المؤرخين والكتاب الجزائريين عن قصد، "**فالفضل ما اعترفت به الأعداء**".

- كتب الجنرال بول أزان : " **تجسد هذا الأسلوب في تكتيك الإزعاج المتواصل الّذي يعتمد على المناورة بالقوّات، والحركة بصورة مستمرّة للتّواصل مع القبائل الجزائرية لتحريضها على المقاومة المسلّحة، أو بمناوشة القوّات الفرنسية في المناطق الخاضعة لها، مستغلاّ في ذلك معرفته الجيّدة بتضاريس القطر الجزائري، وخفّة حركته، وبراعته في التّخفي والتّسلل ليلا ونهارا، وقد تسبّب هذا التّكتيك في إرهاق القوّات الفرنسية، واستنزاف جهودها البدنية، وإمكانياتها التّموينية، وبالتّالي التّأثير في نفسية القادة الفرنسيين الّذين كانوا يُعبّرون عن انزعاجهم من هذه الحركية النّشيطة للأمير عبد القادر**[35]."

- وصف أحد الضّباط البولنديين العاملين في الجيش الفرنسي، وهو لودفيغ بسترزنوفسكي وضعية الجيش الفرنسي الحرجة من جراء حر ب العصابات بقوله " **إن الأمير عبد القادر لا يحارب ضدّ الفرنسيين، ولكنه لا يتركهم يأكلون أو ينامون، أو يطبخون، وحتّى لا يشربون**[36]".

- يعترف الدّوق أورليان ابن ملك فرنسا، الّذي شارك بنفسه في عدّة حملات ضدّ الأمير عبد القادر بأنّ حرب العصابات قد أضرت كثيرا بالجيش الفرنسي، حيث كتب قائلا : " **لقد منع الجزائريون الجيش [ الفرنسي] من النّوم، من خلال إبقائه في حالة تأهب دائم، لم تكن حرب المقاومة أفضل من تلك الهجومات الّتي كان ينفذها حشود المتعصبين واللّصوص، الّذين لا يمكننا تعقبهم، أو العثور عليهم، لأنهم يعيشون دائمًا على ظهور خيولهم، يحومون في النّهار، وفي اللّيل حول الفرنسيين على مساحة تبلغ حوالي عشرين فرسخًا** [37](*) ".

- كتب العقيد لو فلو (Colonel Le Flô) قائد الفوج 32 الخطي إلى المارشال دوكستلان ( de Castellane) رسالة مؤرخة يوم 17 مارس 1846، جاء فيها: **" إنني أعاني كقائد من عدم قدرتي على التّعامل مع العديد من الاحتياجات الّتي أرغب في تحقيقها، ولا أستطيع إنجازها"** ثمّ أضاف بكل يصف حالة الجيش الفرنسي **" هل من المشرف حقًا أن نرى جيشًا يبلغ تسعين ألف عسكري [ يقصد الجيش الفرنسي ] يقع تحت رحمة رجل مقاوم [ الأمير عبد القادر] يقود خمسمائة فارس؟ وهل من الممكن، أمام هذه الحقيقة، أن نتفق على أن دور هذا الجيش يظل مشرفاً؟ من الواضح أن الجواب سيكون: لا**[38]".

- أخر هذه الشّهادات هي ما كتبه ضابط ألماني كان ضمن صفوف الجيش الفرنسي خلال هذه الفترة، وكان يحمل رتبة عالية، هو اللّواء كارل فون ديكر (General major Karl von Decker ) يقول : " كان الأمير عبد القادر يتجنّب المواجهات المباشرة، بل أنه ينسحب أمام القوّات الفرنسية، وينتظر لحظات عودتها إلى مراكزها وهي متعبة، وتكون قد بدأت تنفذ مواردها، ومؤونتها، حينئذ ينفذ ضدّها هجمات متعددة على الأطراف والأجناب، ثمّ يترك مجموعات من الفرسان ترافقها في مسيرة العودة، وهي تراقبها من بعيد، في انتظار استغلال أي لحظة غفلة أو تعب، فتقوم بمهاجمتها في لمح البرق، وتحدث في صفوفها أكبر الخسائر، ثمّ تنسحب بسرعة، وتذوب في الطّبيعة.

استعمل أيضا تكتيك الهجومات الخاطفة على القوافل، ممّا أجبر الفرنسيين على تعيين وحدات الحماية الدّائمة لمرافقة، وتأمين سير هذه القوافل، وهو ما شتّت جهودهم، وأثّر على معنوياتهم.... كثّف الأمير عبد القادر من عملياته العسكرية، فكانت تتوالى الواحدة تلو الأخرى، ممّا أقض مضاجع الفرنسيين، وجعل قادتهم لا ينامون، حتّى كان الفرنسيون يرددون ( إن الأمير سريع مثل البرق، لا يمكننا أن نكون في مأمن من ضرباته، إنه يسير مع فرسانه عشرين فرسخا في ليلة واحدة )[39] ".

**3-بعض النّشاطات العسكرية المنفذة في المرحلة الثّالثة**

تزخر الوثائق الأرشيفية لتلك الفترة المحفوظة في مراكز الأرشيف الفرنسية، من بينها تقارير عسكرية، وملاحظات القادة، والرّسائل المتبادلة بين الضّباط، والمخطوطات الشّخصية، وغيرها[40]، بأمثلة عديدة عن نجاعة، وفعالية استراتيجية الأمير خلال هذه المرحلة، الّتي نجح من خلالها في تحقيق بعض الانتصارات، والإنجازات العسكرية الّتي تدل على الابتكار التّكتيكي الجزائري، وحسن التّدبير والتّنظيم التّعبوي للقوّات، وقد لاحظت وفرة كبيرة في التّقارير العسكرية، والمذكرات الشّخصية، والدّراسات المتنوعة عن النّشاطات العسكرية خلال هذه الفترة، وبالخصوص التّفاصيل الدّقيقة حول معركة جبل الكركور (معركة سيدي إبراهيم) الّتي وقعت في شهر سبتمبر 1845م ضدّ مفرزة عسكرية متمركزة في حامية (Garnison) جامع الغزوات، والّتي أدت إلى مقتل 400 عسكري فرنسي، على رأسهم قائد المفرزة المقدم دو مونطانياك **(De Montagnac)** ، حيث نصب الأمير عبد القادر كمينا محكما، استطاع بذكائه، وحنكته أن يجذب إليه القوّات الفرنسية، ليجدون أنفسهم داخل كماشة تحيط بهم من كلّ جانب، ثمّ ينقض عليهم بقوّاته بكلّ ضراوة، فلم يترك لهم أي منفذ يفرون منه[41].

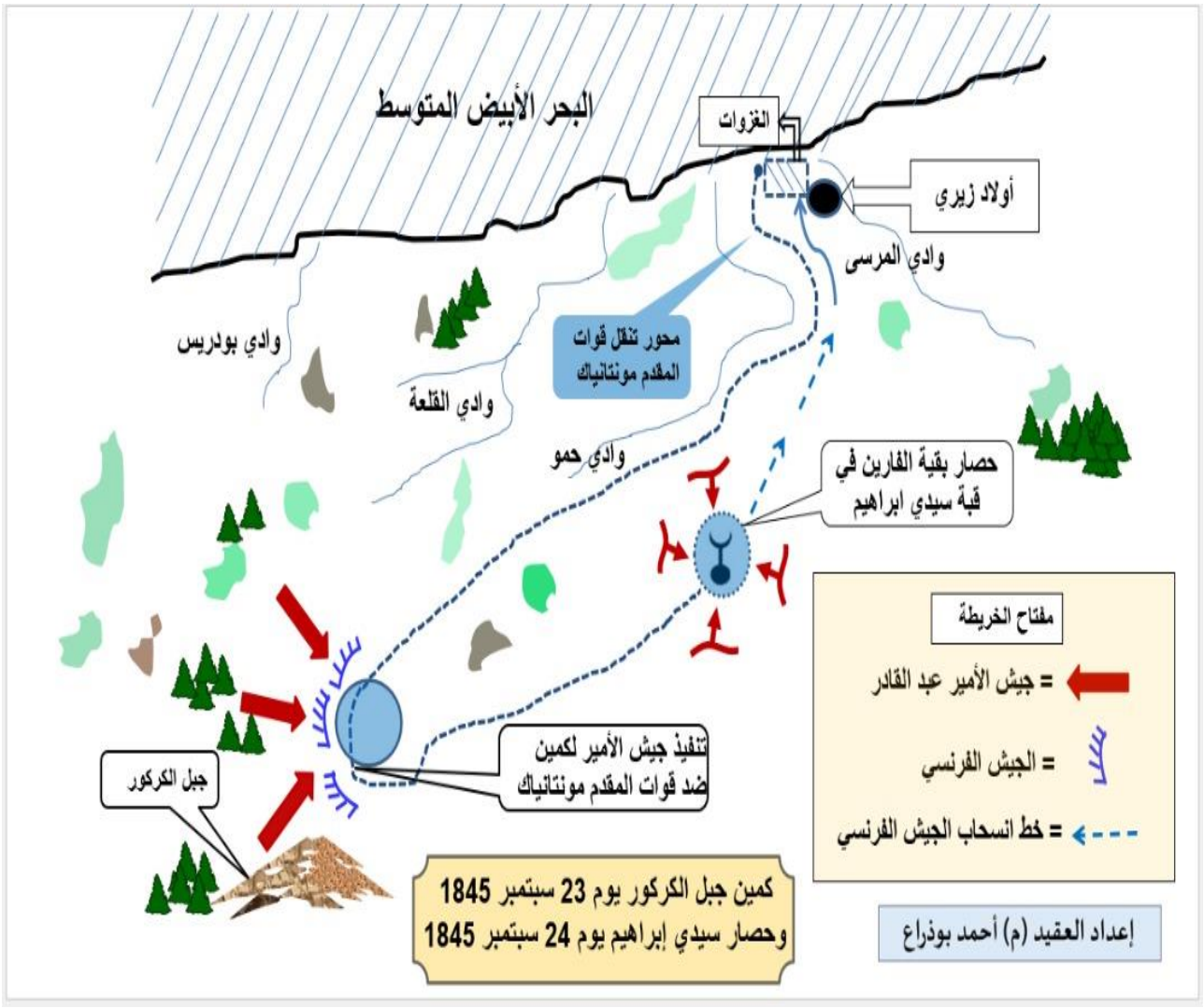
كانت هذه المعركة إنجازا عسكريا بارعا بكلّ المعايير، ونموذجا راقيا للعبقرية العسكرية الجزائرية، ودليلا على الإدارة الجيدة، والقيادة الحكيمة، وحسن التّخطيط، والكفاءة القيادية، والشّجاعة الشّخصية للأمير عبد القادر، وما أظهره المقاتلون الجزائريون من روح قتالية عالية، وانضباط تكتيكي، وصرامة في تنفيذ الأوامر، كلّها

عوامل ساهمت في إلحاق هزيمة منكرة بالقوّات الفرنسية، وهي الهزيمة الّتي لا يزال الجيش الفرنسي يتجرع مرارتها، ويتذكرها كلّ سنة إلى يوم النّاس هذا[42].

بعد هذه المعركة بفترة قصيرة، وبالضّبط يوم 27 ديسمبر 1845، يقوم الأمير عبد القادر إثر حصوله على معلومات مؤكدة عن تحركات قوّة عسكرية فرنسية، بنصب كمين في نواحي سيدي موسى لمفرزة للجيش الفرنسي كانت مكلّفة بتموين حامية عين تموشنت بالذّخيرة والمؤونة، ونظرا للحصار المحكم الّذي ضربه الأمير على كلّ المسالك، والمنافذ، وانتشار قوّاته الجيد في المنطقة، لم يجد قائد المفرزة الملازم الأول ماران ((Marin)) بُدًا من الاستسلام رفقة 200 عسكري، حيث وضعوا أسلحتهم، وكلّ ما يحملونه أرضا مقابل الإبقاء على حياتهم، فأخذهم الأمير أسرى، وحينما بلغت أنباء هذا الاستسلام إلى مسامع الجنرال لامورسيار ( Lamoricière) قائد مقاطعة وهران، جهز جيشا كبيرا، وأمر الجنرال كافينياك (Cavaignac) قائد القطاع الفرعي لتلمسان، بالخروج على رأس قوّاته، ليقوما بالبحث كلّ من ناحيته عن الأمير عبد القادر، ومحاولة تخليص الأسرى الفرنسيين، لكن كلّ مجهوداتهم ذهبت سدى، ولم يعودوا إلاّ بخفي حنين[43].

إذا جاز لنا التّشبيه، فإن الأمير عبد القادر يمثل طائر العنقاء الأسطوري الّذي يخرج من تحت ركام الرّماد، فرغم النّكسات المتعددة، والخسائر المتتالية، والخيانات المتكرّرة، كان ينهض كلّ مرّة أقوى من الأوّل، ويواصل المقاومة، الّتي بقيت رايتها مرفوعة، خفاقة في كلّ أرجاء القطر الجزائري.

كثيرا ما كان قادة العدوّ يعتقدون أنهم قاب قوسين من القبض عليه، بعد قيام جيوشهم الجرارة بمحاصرته من كلّ جانب، فإذا به يفاجئهم باختراقه مثل السّهم للتّطويق المضروب حوله، وظهوره المباغت في مكان آخر لم يكونوا يتوقعون وجوده فيه، أو وصوله إليه بهذه السّرعة.




## الخاتمة

خلصت هذه الدّراسة إلى إبراز معالم من الاستراتيجية العسكرية الّتي اختار الأمير عبد القادر تطبيقها خلال سنوات المقاومة الّتي قادها ضدّ القوّات الفرنسية الّتي كانت تمتلك تفوقا كبيرا من ناحية القوّة العددية، ومن ناحية نوعية الأسلحة مقارنة بقوّاته الّتي كانت ضعيفة من ناحية العدّة والعتاد.

كانت استراتيجية الحروب الثّورية الّتي ابتكرها الأمير عبد القادر تعتمد على ما يعرفه العلم العسكري بأساليب حرب العصابات، والّتي كان تطبيقها الميداني الجيّد قد تسبب في تشتيت المجهود الحربي لجيش الاحتلال الفرنسي، وأفشل أغلب الخطط العسكرية لمختلف القادة الّذين تداولوا على إدارة النّشاطات العسكرية في الجزائر على مدار خمسة عشر عاما من عمر المقاومة، رغم الإمكانيات البشرية والمادية الّتي وفّرتها الحكومات الفرنسية المتعاقبة لقوّاتها في الجزائر.

أظهرت المقاومة البطولية للشّعب الجزائري تحت قيادة الأمير عبد القادر، مدى صمود المقاوم الجزائري، وغيرته في الدّفاع عن دينه ووطنه وأرضه، واستعداده للتّضحية في سبيل حريته، واسترجاع حقوقه، كما أظهرت

وقائع هذه المقاومة عن صفات الأمير عبد القادر الاستراتيجية والعسكرية الّتي جسدتها العبقرية في التّخطيط، والقدرة على التّنظيم، والحنكة في القيادة، واحترام المبادئ الإنسانية، ممّا جعل أعدائه قبل أصدقائه يعترفون له بهذه الصّفات، ويشهدون بأنّه أحد عباقرة فنّ الحرب في ذلك العصر.

أتمنى أن تكون هذه الدّراسة فاتحة خير، ولبنة تفتح شهية الباحثين للكتابة، وإثراء الدّراسات التّاريخية العسكرية حول الأمير عبد القادر، وغيره من قادة المقاومات الجزائرية، والبحث في سير كلّ الكفاءات الوطنية الّتي يزخر بها تاريخنا الطّويل في مجال فنّ الحرب، والاستراتيجية العسكرية، ممّا يساهم في تسجيل الحقائق التّاريخية، والمحافظة على الذّاكرة الوطنية.

**الهوامش:**

[1] - Carl von Clausewitz, **On War**, edited and translated by Michael Howard and Peter Paret, Princeton University Press, Princeton, 1989, p 177.

[2] بازيل ليدل هارت، **الاستراتيجية وتاريخها في العالم**، ترجمة: الهيثم الأيوبي، دار الطّليعة، بيروت، 2000، ص276.

[3] يعرف " **الدّفاع الاستراتيجي النّشيط**" بأنه مجموعة من الإجراءات التّنظيمية، المنسّقة والمترابطة الّتي تقوم بتخطيها وتنفيذها القيادة العسكرية بقصد المحافظة على الأرض (المواقع الدّفاعية)، وحماية القاعدة البشرية والمادية المتوفرة، وتطويرها والاستعداد لصدّ الاعتداءات، وتهيئة الظّروف الملائمة للقيام بالأعمال الهجومية ضدّ القوّات المعادية، ولا تحدّد فترة زمنية معيّنة لتحقيق أهداف الدّفاع الاستراتيجي النّشيط، ولا يشترط فيه الاقتصار على الدّفاع فقط، بل يجب تنفيذ عمليات هجومية خاطفة، أو تهديد مراكز العدوّ، وإزعاج قوّاته، بحيث لا تترك له فرصة تحضير، وشنّ هجومات واسعة تستهدف القضاء على القوّات المدافعة أو القيام بعمليات التّطويق، واحتلال المنشآت الحيوية للدّولة.

[4] الآغا بن عودة المزاري، **طلوع سعد السّعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التّاسع عشر**، تحقيق ودراسة يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990. ج 2، ص 93.

[5] محمّد بن عبد القادر الجزائري، **تحفة الزّائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**، شرح وتعليق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت 1964، ج1، ص 168 ، 171 – 172.

- العقيد تشرشل، هنري شارل، **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمة أبي القاسم سعد الله، الدّار التّونسية للنشر، تونس 1974. ص 65 – 66.

- Galibert Léon, **l'Algérie moderne et ancien**, paris 1846, p 424.

- Karl von Decker, **Biographie d'Abdelkader de l'Algérie et du système de la guerre qu'on y fait**, Traduit de l'allemand par Thonissen, Imprimerie DE J.-E. BUSCHMANN , Anvers 1846. P 26 – 34.

- Alex Bellemar, **Abdelkader, sa vie politique et militaire**, hachette, paris 1863, p 46.

- Georges Yver, **Correspondance du Capitaine Daumas. Consul a' Mascara 1837 - 1839**. Collection de documents inédits sur l'histoire d'Algérie après 1830, Alger, 1912, p 630.

- Colonel Paul Azan, **L'émir Abdelkader 1808 - 1883**, du fanatisme musulman au patriotisme français, éd. Hachette, Paris, 1929, p 16, 20, 32.

[6] قدور بن الرّويلة، **وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمّدي الغالب**. تحقيق محمّد بن عبد الكريم، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 1968، ص 39 -40.

- محمّد بن عبد القادر الجزائري، المرجع السّابق، ص 191-192، 314 – 315 - العقيد تشرشل، المرجع السّابق، ص 140.

- Pellissier de Reynaud, **Annales Algériennes**, Paris 1839, p 349 – 352.

- Louis de Baudicour, **La guerre et le gouvernement de l'Algérie**, paris 1853, p 418.

- Paul -Gaffarel, **l'Algérie Histoire**, **conquête et colonisation**, Librairie de Firmin-Didot et cie., 1883. p 197-198.

- Alex Bellemar, op.cit., p 225 – 227.

- Galibert Léon, op.cit. p 501.

- Paul Azan,, op. cit. p 138.

[7] - Louis Alexis Baron Desmichels, **Oran sous le commandement du général Desmichels**, Librairie militaire d'Anselin, 1835, p 38 -39.

- général comte de De Mintimpry, Souvenir d'un officier d'etat major, Histoire de l'établissement de la domination française dans la province d'Oran 1830 - 1847, Maison Quantin, Paris 1886, p 13-14.

- Paul Azan, op.cit, p 10 -11.

[8] - محمّد بن عبد القادر الجزائري، المرجع السّابق، ص 237 ؛ العقيد تشرشل، المرجع السّابق، ص 96 – 97.

– Gabriel Esquer, Correspondance du Général Drouet d'Erlan, gouverneur général des possessions françaises dans le nord de L'Afrique (1834-1835), Librairie Edouard Champion. Paris – 1926, p 509

- Pellissier de Reynaud, Annales, op.cit. p 461.

- Galibert Léon, op.cit. p 439.

- Paul Azan, op.cit. p 49-51.

[9] محمّد بن عبد القادر الجزائري، المرجع السّابق، ص 238 ؛ العقيد تشرشل، المرجع السّابق، ص 97.

- Gabriel Esquer, Correspondance du Général Drouet, op.cit. p 511.

- Pellissier de Reynaud, Annales, op.cit. p 462.

- Galibert Léon,, op.cit. p 442.

- Paul Azan, op. cit, p 50-51.

[10] محمّد بن عبد القادر الجزائري، المرجع السّابق، ص 186.

- Lt. Colonel Achille Aubier, la bataille de Sikkak, Levrault 1905.

- Galibert Léon,, op.cit. p 457-459.

- Paul Azan, op.cit, p 83.

[11] محمّد بن عبد القادر الجزائري، المرجع السّابق، ص 277 – 279؛ العقيد تشرشل، المرجع السّابق، ص 117-118، 302.

- Marcel Emerit, **l'Algérie a l'époque D'Abdelkader, Collection de documents inédits sur l'histoire de l'Algérie**, Paris, larose, 1951, p 136.
– Paul Azan, op.cit, p 24, 26.
- Alex Bellemar, op.cit., p 175.
- Galibert Léon, op.cit., p 477.

[12] التّوازن الاستراتيجي في العلم العسكري هي مجهودات تبذلها القيادة العسكرية لمحاولة التّقليل من الفجوة الّتي تفصل بين طرفين متصارعين من ناحية التّفوق في الإمكانيات البشرية، والوسائل القتالية، ولا يمكن الوصول إلى تحقيق التّوازن الاستراتيجي العسكري بصفة منفصلة، بل يجب أن تدعمه عناصر قوى الدّول الشّاملة (السّياسية، الاقتصادية، الاجتماعية ...) الّتي تمنح الدّولة القدرة على حشد واستخدام كلّ قواها لتحقيق أهداف الاستراتيجية العسكرية.

[13] - ناصر الدّين سعيدوني، **عصر الأمير عبد القادر الجزائري**، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشّعري، الكويت 2000، ص 208.

[14] محمّد بن عبد القادر الجزائري، المرجع السّابق، ج 1، ص 306 – 307.

– Paul Azan, op.cit, p 131-134.
- Alex Bellemar, op.cit., p 220-223.
-- Marcel Emerit, , op.cit, p 227.
- Daumas, correspondances, op.cit, p 477.

[15] A. De Lacroix**: Histoire Privée et Politique D'Abdel-Kader**, paris,1845, p 181.
- Archives du ministère de la guerre, H 236, Algérie, La situation du sultanat en 1839, par Léon Roches.

[16] محمّد بن عبد القادر الجزائري، المرجع السّابق، ص.245 - 247. - العقيد تشرشل، المرجع السّابق، ص 140.

[17] قدور بن الرّويلة، المرجع السّابق، ص.68 - 71.

[18] العقيد تشرشل، المرجع السّابق، ص 135.

[19] –- قدور بن الرّويلة، المرجع السّابق، ص 47 – 48 - العقيد تشرشل، المرجع السّابق، ص 186.

[20] - Alex Bellemar, op.cit., p22 .

-العقيد تشرشل، المرجع السّابق، ص 142.

[21] Karl von Decker, op. cit., p 73.

- ناصر الدّين سعيدوني، **دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ط. 2. ، دار. البصائر، الجزائر 2008، ص 227

-العقيد تشرشل، المرجع السّابق، ص 142 –144.

- Archives du ministère de la guerre, H 236, Algérie, La situation du sultanat en 1839, par Léon Roches,
- Alex Bellemar, op.cit., p 229 – 236.
– Paul Azan, op.cit, p 133.

[22] général Du Barail François-Charles, **Mes souvenirs**. T.1, édition E. Plon, Paris 1897, p 83.
- Ernest Alby, **histoire des prisonniers français en Afrique depuis la conquête**, T. 1, paris 1847, p 158.
- Karl von Decker, Biographie d'Abdel-Kader op.cit., p 55- 56.

[23] العقيد تشرشل، المرجع السّابق، ص 135.

[24] نفس المرجع السّابق، ص 120.

[25] محمّد بن عبد القادر الجزائري، المرجع السّابق، ص 353.

[26] Paul Azan, op.cit, p 158.

[27] Ibidem.

[28] محمّد بن عبد القادر الجزائري، المرجع السّابق، ص 362 ؛ -العقيد تشرشل، المرجع السّابق، ص 185.

- Alex Bellemar, op.cit., p 263-265.

- Galibert Léon,, op.cit. p 515.

[29] Paul Azan, op.cit, p 159.

[30] Idem, p 164 – 166.

[31] Henry d'Ideville, **Le maréchal Bugeaud, d'après sa correspondance intime et des documents inédits**, Didot, 1882, p 47 .

- Alex Bellemare, Abdelkader, op.cit. p 274-275 .

[32]Alex Bellemare, **Abdelkader**, op.cit. p 144 - Paul Azan, op.cit, p 197.

[33] -العقيد تشرشل، المرجع السّابق، ص 189.

[34] - Archives du ministère de la guerre, **journaux de marches et opérations militaires.**

[35] - Paul Azan, op.cit., p 213.

[36] - E.Reklajtis, **contribution a la recherche historique au sujet des relations Algero-polonaise**, traduction de propos de L.Bystrzonowski, in Revue d'histoire et civilisation du Maghreb, N 10/1973, p. 91.

(*) – الفرسخ الفرنسي ( Lieu) هي وحدة قياس المسافات في تلك الفترة، واحد فرسخ يساوي تقريبا أربعة (04) كيلومتر. نقلا عن ناصر الدّين سعيدوني، **عصر الأمير**، ص 166.

[37] – Philippe Duc d'Orleans, **Campagnes de l'armée d'Afrique (1835 - 1839)**, Paris, Michel Lévy, 1870., p.283 – 284.

[38] - **Campagne d'Afrique (1835 - 1848 ) lettres adressées au Maréchal de Castellane par les maréchaux de l'Armée française**, Paris, Plon 1898, p 480.

[39] Karl von Decker, op.cit. p 76, 83.

[40] أنظر على سبيل المثال:

- Archives d'outre-mer à Aix en Provence F80/1971 - F80/1972.

- Archives du Ministère de la Guerre a Vincennes, 1H228 – 1H99 – 1H 235.

[41] - لمزيد من التّفاصيل عن هذه المعركة، ينظر:

- Rapport du commandant Courby de Cognord sur la bataille de Sidi Brahim (Monitor de l'armée 30 /10/1845).

- L.-E. Courserant, Sidi Brahim, héroïsme et sacrifice, imprimerie de l'association ouvrière, 1890.

- Capitaine A. Pernot, Combat de Sidi Brahim 23, 24, 25 et 26 septembre 1845, Ad.Weick éditeur. Saint-Dié. 1901.
- Général Paul Azan, **Sidi-Brahim**, Paris, librairie Lavauzelle, Paris.1930.
- Colonel Guinard. Sidi-Brahim. Coll. R et J Brunon. Marseille (s.d).

[42] تقوم وحدات المطاردين المترجلين (Chasseurs a pied) بإحياء ذكرى معركة سيدي إبراهيم كلّ سنة، وقد شاهدت بنفسي يوم 22 سبتمبر سنة 2022 م، استعراضات الكتيبة 16 للمطاردين المترجلين الّتي شارك فيها حوالي ألف عسكري، وعائلاتهم، والمدعوين.
يمكن الاطلاع في الموقع الالكتروني لوزارة الدّفاع الفرنسية على ترسيم إحياء الذّكرى السّنوية لمعركة سيدي إبراهيم على هذا الرّابط:
https://www.defense.gouv.fr/terre/traditions/commemorations-larmee-terre#title-46780

[43] –De Mintimpry, op.cit. p 238-239.
- Alex Bellemare, op.cit. p 146.
- Paul Azan, op.cit, p 211.